بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحديبية كلمة تدل على معلمٍ من معالم السيرة النبوية ، معلمٍ يتضمن عددًا من أدلة صدق نبوة محمد ﷺ .

ففي الحديبية سفر وإقامة ؛ وحرب وسلم ؛ وفيها تربية وتعليم ؛

وفيها تأكيد لمكانة المرأة في الأمة والأسرة ، يخالف ما عليه المتزمتون ـ في شأن المرأة ـ من زعمهم اتباع رسول الله ﷺ ؛

وفيها تشريع عبادة وأداؤها ؛ وفيها تعليمٌ سياسيٌّ من النبي ﷺ لأمته ؛

وفيها مواقف للمنافقين يفضحها الوحي فيبينها الرسول لأصحابه ؛ وفيها قرآنٌ ينزل في أثنائها ، وبعدها ، يتحدث عما سبقها وعما سيلحقها ، ويبشر المؤمنين بالنصر ، والفتح بعد الفتح .

لذلك كان العيش مع الحديبية نموذجًا للعيش في ظلال السيرة كلها ، الذي هو كالعيش مع رسول الله ﷺ في غدوه ورواحه ، وسائر أحواله.

والسيرة على وجه الإجمال محفورة في ذاكرة الأمة المسلمة ، لكنها تقتضي - في كل جيل - تطوافًا تفصيليًّا بأهم معالمها يوقف المتابع للشأن النبوي - بل للشأن الإسلامي - على بعض دقائق الأمور ومهماتها. وينبه المؤمنين إلى كيفيات من التعامل الراقي مع الأشخاص والأحداث قلَّ من يهتم من الناس بإحيائها والدعوة إليها.

وفي هذا العود إلى بعض تفاصيل السيرة ، من وقت إلى آخر ، تذكير ضروري بما اعترى طريق الدعوة الإسلامية في العهد النبوي من عقبات ، وبما أنعم الله به على رسوله والمؤمنين من انتصارات ، يطمئنُّ به قلب المؤمن في المحنة والمنحة ، والاختبار والنعمة ، والعسر واليسر ، والرخاء والشدة .

ولو لم يكن للقراءة التفصيلية للسيرة النبوية غير هذه الفائدة لكانت كافية في بعث الهمة إلى تجديد النظر في وقائع السيرة، وتجديد الكتابة عنها، في كل عصر من عصور الإسلام.

فكيف والكتابة في السيرة ، والإحاطة بها ، من أهم السبل التي تعين المسلم على التأسي برسول الله ﷺ امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب:٢١)؛ وتجعله يعقل فضل طاعة رسول الله ﷺ المأمور بها في مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ (التغابن:١٢) وقوله تعالى على لسان نبيه : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران:٣١) .

وفي الحديبية من ذلك كله كثير سيجده القارئ في ثنايا فصول هذا الكتاب .

* * *

ويكفي القارئ أن يقف على أن رب العزة ـ تبارك اسمه ـ خاطب نبيه ﷺ بالوحي في الحديبية ، أو بسببها ، ثلاث مرات .

كانت أُولاها هي نزول قول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ

فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (البقرة:١٩٦) .

وكانت ثانيتها عندما نزل قول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (النساء:١٠٢)

وهو ما سيأتي بيانه في فصل (التيسير على الناس) ؛

وكانت ثالثتها نزول سورة كاملة ، هي سورة الفتح المكونة من تسع وعشرين آية ، كلها في شأن الحديبية. وسيجد القارئ حديثًا عن هذه النصوص القرآنية ، موجزًا ، في فصل (حديث الوحي) ؛ وإنما أردت بالتنبيه عليها هنا إبراز

حقيقة بالغة الأهمية هي أن أمر الحديبية كان وحيًا من أوله إلى آخره.[1] لئلا يغتر أحدٌ بقول قائل من الحكام ، أو من الذين يُسوِّغون لهم أعمالهم بالحق وبالباطل ، إنه يجتهد ، في شأنٍ ما ، كما اجتهد رسول الله ﷺ في شأن الحديبية .

وبعض الذين يهرفون بما لا يعرفون يقولون إن الدولة الإسلامية العصرية ، وهي في حالها التي هي فيه ، من الضعف الداخلي والهوان الخارجي ، يجوز لها أن تقبل الدَنِيّة وتتنازل عن بعض حقوق شعوبها. وهذا كلام غير صحيح وغير جائز. وليس أشد منه بطلانًا إلا كلام بعض المنسوبين إلى الفقه عن جواز إبرام معاهدات الصلح في حالات الضعف العسكري والسياسي قياسًا ـ فيما زعموا ـ على صنيع النبي ﷺ في الحديبية .

أقول : إن هذه المزاعم كلها فاسدة ، لأن أمر الحديبية كان وحيًا كله كما أسلفت ؛ ولأن المسلمين لم يكن بهم ضعف ولا هوان بل كانوا في حال قوة وعزة ، حتى إنهم أسروا من المشركين مائة وسبعة وسبعين رجلا ، كما سيراه

---

(١) محمد سليم العوّا ، في النظام السياسي للدولة الإسلامية ، ط٨ ، دار الشروق ٢٠٠٦ ص ١٨٨.

القارئ في موضعه من هذا الكتاب . بل إن رسول الله ﷺ هو الذي قال لبديل بن ورقاء « إن شاءت قريش مادتهم مدة يأمنون فيها » ، وهذا قول من المعصوم ﷺ يدل على أن الضعف والخوف من الحرب كان من شأن قريش لا من شأن المسلمين .

* * *

إن صلتي بالحديبية قديمة قدم صلتي بالسيرة النبوية المشرفة ، وعندما كنا نقرأ السيرة في بيتنا كانت الحديبية ، وما جرى فيها ، مثار تساؤلات عديدة لمن شاركونا هذه القراءة ، وللأبناء والبنات ، ولم يتسع وقت تلك القراءة للرد على كثيرٍ من تلك التساؤلات .

وقد تجددت هذه الصلة بالحديبية وما جرى فيها منذ خمس سنوات (١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢) عندما طلبت مني صحيفة الخليج الإماراتية أن أكتب لها عدداً من المقالات بمناسبة شهر رمضان المبارك فكتبت بعض فصول هذا الكتاب موجزة ، بما يناسب الكتابة الصحفية ، ونُشرت يومًا بعد يوم من أيام شهر رمضان المبارك لعام ١٤٢٣ هـ .

ثم دعيت إلى الحديث عن الحديبية في عدة أماكن منها نادي قضاة مصر (٢٧ من رمضان ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢/١٢/١م) وتشرفت في تلك الليلة بأن شاركت في هذا الحديث أستاذيَّ الجليلين المستشار عثمان حسين عبد الله والمستشار طارق البشري ؛ ثم تناولت الحديبية من زوايا أخرى في حديث مفصل في محاضراتي الأسبوعية التي ألقيها في جمعية مصر للثقافة والحوار بالقاهرة .

وكان الحاضرون في كل مرة يضيفون إليّ أكثر مما أضيف إليهم. فالأسئلة ، والاستفسارات ، والاعتراضات ، ووجوه الانتقاد كلها أدت إلى مزيد بحثٍ وتحقيق جعل النص الذي يقرأه القارئ هنا على الصورة التي هو عليها ، وأنا مدين بأكبر الفضل فيها إلى الذين قرأوا النص الأول ، أو سمعوا ما قلته : فسألوا ، أو استفسروا ، أو اعترضوا ، او انتقدوا .

وكان الملف الذي أودعته أصول مقالات صحيفة «الخليج» ، وأصول المحاضرات التي ألقيتها عن الحديبية في عدة مناسبات ، قد فقد مني. وَضَعْتُه في غير مكانه فأصبح شبه مستحيلٍ أن أعثر عليه في أكوام الأوراق والملفات والمؤجلات من البحوث والدراسات !! لكن الله ـ وله الفضل ـ

يسَّر للزميلة العزيزة الأستاذة سهير الخياط المحامية بالنقض ، ومديرة مكتبي للمحاماة ، أن تجده في غير مظنة وجوده ، فاستَفدت منه ووجدت فيه بعض ما سُئِلت عنه ، أو اعترض به على ما قلت فزدت ما يتصل بذلك من فصول الكتاب بيانًا. فللأستاذة سهير الخياط في ذلك الفضل ، ومني لها صادق الشكر.

ومن شُكْرِ الناسِ ، الواجب شرعًا ، أن أذكر جهد مساعدتي ــ بل ابنتي التي لم ألدها ـ أمل العشماوي التي أرهقتني بإلحاح متواصل ـ لا يَكل ولا يَمل ـ لأنتهي من هذه الفصول ، حتى أصبحت معذب النفس لكثرة ما كانت تبدئ القول في الأمر وتعيده ! ولم أجد مخرجًا مما ركّبتني إياه من هم إلا بالتفرغ لإنجاز ما كان غير تام من فصول هذا الكتاب. فجزاها الله خيرًا عن أحسنِ صنيعها ، وغفر لها أسوأه !!

وقد قرأت المسوّدة الأخيرة لهذه الدراسة ابنتي المهندسة مريم ، واقترحت عدة اقتراحات نافعة أخذت بها ، وهي يدٌ لها عندي أذكرها وأشكرها .

* * *

وإذا جعل الله في العمر بقية ، وفي العزم مضاءً ، فإنني آمل أن أوفق إلى كتابة ما يتيسر لي من أحداث السيرة

ومواقفها بالطريقة التي يجد بها القارئ بين يديه هذه الفصول من قصة الحديبية .

وما كان في هذا الكتاب ـ وغيره مما كتبت وقلت ـ من صواب فهو من الله تبارك وتعالى ، له وحده فيه الفضل والمنة ؛ وما كان من خطأ ، عن سهو أو غفلة ، فهو مني لا يسأل عنه سواي .

والله أسأل أن يغفر لي زلاتي وأخطائي ، ويرحم سري وعلانيتي؛ وأن ينفع بهذه الفصول كاتبها وقارءَها، وأن يسلكنا بها في زمرة الذين يحبون رسوله ويتبعونه ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (آل عمران:٣١) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،

القاهرة في: ٢٢ من ربيع الأول ١٤٢٨هـ

١٠/٤/٢٠٠٧م

محمد سليم العوَّا